الاشتراكية الصحيحة[1]

س · اراك تكثر من ذكر الاشتراكية وتقول انها من نعم الاجتماع الكبرى · مع ان اكثر الناس ينفرون من سماع ذكرها و يعتبرونها من الشرور المقوّضة للعمران · فما هو السبب ؟

ج · لنفور الناس من ذلك سببان : الاول ان الاشتراكية في الاجتماع تعليم حديث ولو ان اصولها قديمة فيهِ · والناس ينفرون عادة من كل جديد · فهم كسائر الحيوان الذي ينفر من كل عالم يرَهُ من قبلُ حتى يألفهُ كالخيل والبقر والقطط · ويعبّر عن هذا الطبع في الحيوان بلفظة « نيزوفيسم » من كلمتين يونانيتين معناهما الخوف من الجديد . فنفور الانسان من الاشتراكية من هذا القبيل

والسبب الثاني هو ان اكثر الناس حتى اليوم لا يفهمون معنى الاشتراكية و يظنون انها ترمي الى اقتسام المال بطرق غير مشروعة · وليس من العدل ان يشارك الخامل العامل في مالهِ

س · ماذا تعلّم الاشتراكية اذن ؟

ج · الاشتراكية لا تعلّم ذلك مطلقاً · ومن الحق ان يفهم الناس بها هذا الفهم و يتّهم اصحابها بمثل هذا الخرق في التعليم بل هي تعلم احترام الحق بمكافأة العمل لئلا يضيع افراد المجتمع حيف يتصل ضررهُ بالاجتماع كلهِ

س · ما معنى قولك الاشتراكية الصحيحة وهل توجد اشتراكية غير صحيحة ؟

ج · الاشتراكية واحدة في غايتها وهي اصلاح حال الاجتماع باصلاح حال كل واحد فيهِ · ولكن الطريق الموصلة الى ذلك في نظر اصحابها تختلف باختلاف عالم من العلم · وقد كانت علوم الانسان حتى الى عهد قريب علوماً موضوعة اكثر منها علوماً مطبوعة · فكانت طرقها اقرب اي النظر فيها الى العمل بحسب مبادىء تلك العلوم · فالاشتراكية الصحيحة هي الاشتراكية الطبيعية المبنية على مبدإ العلوم الطبيعية منها

س · وما هو هذا الفرق

ج · الفرق لا سيما في الغاية كما تقدّم بل في الواسطة · فالاشتراكية المبنية على العلوم الطبيعية اهدى سبيلاً واسهل تطبيقاً لوحدة مبدإ هذه العلوم بخلاف تلك فانها كثيرة التعثّر لتعدّد مبادئها وشدّة اختلافها

(١) من كتاب حوادث وخواطر للدكتور شبلي شميل

س . ما هو حدُّ الاشتراكية ؟

ج . هي توفير العمل اولاً وتوفير المنفعة على قدر العمل

س . ماذا تعني بذلك ؟

ج . اعني ان نظام الاجتماع يجب ان يكون بحيث يصير جميع الناس في الاجتماع عاملين نافعين منتفعين كل واحد على قدر استحقاقهِ حتى لا يبقى في الاجتماع اناس عاطلون وآخرون مغبونون يشوّشون فيهِ ويفسدون

س . وهل يمكن ذلك ؟

ج . بل هو طبيعيّ في نظام الاجتماع فالاجتماع لا يتمّ بلا تعاون وهذا لا يصحُّ الاَّ اذا كان تكافؤ تامٌّ بين العمل والجزاء . ولذلك قلت ان اصول الاشتراكية قديمة في الاجتماع

س . وهل هذا غير متوفر في النظام القديم ؟

ج . نظام الاجتماع القديم اساسهُ سلطة الفرد ومبدأهُ الاعمال لمصلحة هذا الفرد . فالناس في هذا النظام ارقاء يشقون ويكدّون ويقتتلون لمصلحة الحاكم او الرئيس ولا ينال الواحد منهم القوت الضروري الاَّ بشق النفس وهو غبن فادح وضرر على العمران جسيم

س . ولماذا هو غير متوفر ؟

ج . لان الناس في الاجتماع غير متساوين في المواهب الطبيعية لا في القوة والبطش ولا في الفهم والمطامع فبطشُ القوي بالضعيف وسطا صاحب الحيلة على عديمها وتوهم الكبير ان مصلحتهُ لا تتفق مع مصلحة الصغير فسلبهُ تعبهُ ولم يدعهُ يتمتّع بجناهُ

س . كيف صبر الناس على ذلك ؟

ج . صبروا عليهِ لضعفهم اولاً ثم تعوّدوهُ ولشدّ ما الفوهُ رضوا بهِ ولم يعودوا يرون فيهِ اقلَّ غضاضة عليهم بل صاروا ينفرون من مساعي الذين يريدون ان يخرجوهم منهُ الى اصلح لانهم بجهلهم لم يعودوا يفهمون الاصلح

س . هل النظام القديم هو نظام الاجتماع اليوم ؟

ج . هو كذلك في المجامع المتمدنة وهو لا يزال في جملتهِ روح الاجتماع في المجامع الراقية نفسها ولو انهُ تعدّل كثيراً فالجمهور حتى اليوم لا يستفيد كل الفائدة من تعبهِ ولا يستفيد الفائدة الكبرى منهُ حتى الساعة الاَّ افراد قليلون

س . قلت ان نظام الاجتماع القديم يضر بالعمران كثيراً فاين لي اوجه هذا الضرر

ج · اولاً يجب ان نعرف ان العمران هو استعمار الانسان للعالم أجمع · والاوطان والشعوب فيهِ كالغرف وافراد الاسرة في البيت الواحد · فلكي يصلح العمران يلزم ان تستثمر الارض جميعها وذلك لا يكون الاَّ باستخدام كل قوى الانسان ومواهبهِ · والنظام القديم نظام اثرة يفرق بين الناس ويقتل الهمم ويطفيء المواهب فتصبح الاوطان ضد الاوطان والامم ضد الامم · ولقد وصف ابقراط تأثير نظام الاثرة في الهمم قال « ان اهل اسيا اقلُّ نجدة للحرب من اهل اوربا لان اولئك يحكمهم ملوك تنعمهم ذاهب نفعهُ الى سواهم واما اهل اوربا فتحكمهم شرائعهم ومفاخر النصر ومنافعهُ عائدة اليهم » · والمحكوم بهذا النظام لا يكون لهُ همَّة ولا يقدم على اي عمل كان ما دامت نتيجة عملهِ ليست لهُ فضلاً عن ان الضغط الشديد يطمس العقل فلا يتصرف للعلم فيعمُّ الجهل · ومطامع الملوك وقلة اعتدادهم بحياة الناس تلقيهم في كل مازق وتصرفهم عن كل عمل عمراني نافع فتدفعهم الى الحروب المخربة وتلقيهم في المجاعات المهلكة

ثم ان شدَّة التباين بين الناس في مثل هذا النظام تفقدهم الصلة في ما بينهم في كل امورهم المعاشية فتسوء حالة الافراد ويتزعزع كيان الاجتماع · قصور فخيمة بجانب اكواخ حقيرة · واحياء نظيفة بجانب احياء قذرة · واناس بطارف من خز بجانب آخرين باسمال بالية · واصحاء تكنفهم كل اسباب الراحة بجانب مرضى ينقصهم حتى القوت الضروري · فتنتشر الامراض والاوبئة وتكثر الجنايات والقلاقل وتخرب الارض ويمتد ذلك من المجتمع الواحد الى المجتمعات الاخرى ويسوء العمران · فنظام الاجتماع القديم وكما هو حتى اليوم تبذيرٌ في قوى الاجتماع بل مسرف هذه القوى فيهِ من الخير الى الشر ومن التضافر على العمار الى الدمار

س · ألم يعرف الانسان ذلك في كل العصور ولمَ لم يتلافهُ كما يجب

ج · قام في كل العصور اناس عرفوا هذا الحيف وقاموا يتبهون اليهِ ولكن غلبة الراسفين في قيود الجهل كانت تجعل صوتهم ضعيف الصدى فلا يتزحزحون الاَّ مثاقلين · العامة تمسكهم بالقديم والخاصة لاقتناعهم ان مصلحتهم لا تتوفر لهم الاَّ بمقاومة مصالح الجمهور ولا يدركون ان المصلحة الخاصة لتتوفر لهم اكثر اذا كانت المنافع متبادلة ولم يكن في علوم الناس عموماً ما يغرس في عقولهم وطباعهم غير هذا الاعتقاد

س · لماذا المصلحون لم يعلموهم هذا العلم ؟

ج · حاول المصلحون منذ القديم ان يرشدوا العمران الى طرق اصلاحهِ بكل الوسائل

المعقولة المستفادة من الاختبار على قدر ما كانت تسمح لهم علومهم وعلومهم كانت نظرية واكثرها كذلك حتى اليوم ومعارفهم الطبيعية لم تكن ذات رابطة مكينة تربط نظام العالم بعضهُ ببعض فكانت شرائعهم شرائع وضعية كاكثر علومهم فلم يكن العلم بها ليفيهم الشرور في فهم المصلحة الحقيقية ومع ان اساس شرائعهم التعاون لم يكن يفهم من هذا التعاون توفير العمل وتوفير المنفعة على قدر العمل كما ترى في هذه الدائرة السياسية لارسطو التي في اساس هذه الشرائع : قال : «العالم بستان سياجهُ الدولة . والدولة سلطان تحيا بهِ السنَّة . والسنَّة سياسة يسوسها الملك . والملك نظام يعضدهُ الجند . والجند اعوان يكفلهم المال . والمال رزق تجمعهُ الرعية . والرعية «عبيدٌ» يكنفهم العدل . والعدل مألوف وبهِ قوام العالم» . فما دامت الرعية عبيداً فمن المستحيل ان يكنفهم العدل . وكيف يكون العدل مألوفاً واساسهُ مثل هذا النظام المؤسس على هذه العلوم التي ليس لها رابط غير احكام العقل القائمة على اوهام مستفادة من تعرُّف الطبيعة تعرُّفاً ناقصاً جدًّا والذي جُعل الحكم الاوتوقراطي والثيوقراطي فيهِ اساس العمران

س . ماذا تعني بالحكم الاوتوقراطي والثيوقراطي ؟

ج . اريد بهما الحكم القائم على سلطة الملوك واعوانهم وسلطة رجال الدين وكلها مرجعها الى سلطة الفرد

س . نقول ان الاشتراكية تتكفل بان تنيل الانسان في العمران ما حرمهُ منهُ النظام القديم والاشتراكية في ما اعلم قديمة والاشتراكيون اليوم كثيرون فلماذا لم تتم للعمران هذه السعادة ؟

ج . للجواب على ذلك يجب ان نعلم اولاً ان بعض الجامع التي يكثر فيها الاشتراكيون قد ارتقت جدًّا عمَّا كانت في القديم والتي يوجد منها مثال في التأخر في بعض الجامع الأخرى اليوم . وثانياً ان العلوم القديمة النظرية التي هي كل علوم الجامع المتأخرة لا تزال حتى في الجامع الراقية ذات سلطان عظيم

نعم ان الاشتراكيين موجودون منذ القديم حتى يجوز ان يطلق هذا الاسم على عموم المصلحين القدماء وهم اليوم كثيرون . ولكن غلبة العلوم النظرية في تعاليمهم تحول دون نجاحهم التام لسببين اولاً لعدم اتفاقهم فيها على الحبل المكين الذي يجب ان يكون الهادي فيها والرابط لها لاختلاف مبادئ العلوم النظرية المتربين فيها هم والمتربي عليها عموم الناس ويجب ان نعلم ان التربية العلمية اذا رسخت في الطبائع تصير ازالة اثرها من هذه الطبائع

اصعب جداً من ازالة نفس العلم من الاذهان فكيف اذا كان العلم الغالب على البشر هو العلم القديم الذي يمكن هذه التربية في طبائعهم كما هي الحال حتى اليوم

س . وما هو هذا الحبل الهادي والرابط معاً ؟

ج . هو العلوم الصحيحة واريد بها العلوم الطبيعية بأسرها من الطبيعة الصامتة الجامدة الى الاحياء عموماً

س . وهل لم تكن هذه العلوم معروفة في القديم أوليست هي معروفة اليوم ؟

ج . لا أقول انها كانت مجهولة في الماضي فكانوا يعرفون ان الماء ينحدر الى اسفل والدخان يصعد الى فوق والحرارة تبخر الماء والتبن يجلب المطر والكهرباء اذا فركت تجذب قصالات القش والمغناطيس يجذب الحديد والبوصلة تتجه الى القطب الشمالي بل عرفوا قوة الاحتكال وجر الاثقال وعرفوا تأثير الفصول في النبات ورأوا الحيوان يتحرك والانسان يفتكر واستخدموا كل ذلك في معايشهم وبنوا عليه علومهم وتوسعوا فيها على قدر احكامهم من معارفهم هذه المحدودة . وما قصّر عنهُ اختبارهم اكملهُ باجتهادهم في هذا العلوم الناقص وأحرى بان يكون العلم المبني على الناقص ناقصاً في كل شيء . فهم وان كانوا في القديم عرفوا كل هذه المفردات فانهم لم يعرفوا الرابط بينها وعلى تفكك هذا الرابط اقاموا علمهم في الكليّات فكان كلهُ اجتهاداً وتكوّنت لهم من ذلك تلك الفلسفة التي نسميها نحن اليوم نظرية مجرّدة مع انها في الاصل ليست مجرّدة بل مبنيّة على علم ناقص مفكك الروابط وهذا سبب مذاهب التعدد عندهم في الخلق

وحتى التمدن اليوناني الباهر لم يكن علمهم في هذه الكليات ذا ضابط . وابقراط الطبيب الطبيعي العظيم الذي ردّ الامراض الى نظام الطبيعة واعتبرها طبيعية وقد كانت تنسب الى قوات الهية لم يستطع ان يجعلها كلها من هذا المنشإ الطبيعي بل اعتبر الامراض العصبية الغريبة كانواع الصرع والهستيريا من مصدر غير طبيعي وأبقى لها الاسم الذي كانوا يطلقونهُ عليها وهو المرض الالهي . وبقي علم الناس في هذه المفردات والكليات المبنية عليها حتى عصر النهضة العلمية في اوربا . وحتى اواسط القرن الماضي لم يكونوا يعرفون نسبة القوى الى المادة ولا نسبتها بعضها الى بعض وكانوا يعتبرون الحرارة والنور والكهربائية قوى منفصلة ويسمونها بالقوى العديمة الثقل ويفصلون القوى الطبيعية عن القوى الحيوية وكانوا يعتبرون العناصر اجساماً ثابتة وكثيرون يعتبرونها كذلك حتى اليوم واما الرابط الكلي الذي يربط هذه الطبيعة الكبرى من جامد وحي فلم يكونوا يعرفونهُ

س . واليوم ألا يعرفون كل ذلك فلماذا الاجتماع حتى ارقاهُ لا يزال مضطرباً في سائر امورهِ ؟

ج . نعم عرف الناس اليوم كثيراً عن الطبيعة كما تدل مكتشفاتهم ومخترعاتهم الكثيرة وفخر القرن الماضي بل نصفهُ الثاني لا في التبسط في هذه الجزئيات بل في وقوفهِ على سر الطبيعة العظيم ومعرفتهِ وحدة النواميس التي تسوسها ووحدة الرابط الذي يربطها بعضها ببعض في تحولاتها المختلفة . ومن اول ما قام العمران الى اليوم لم تكتشف فيهِ حقيقة اهم من هذا الاكتشاف وهو بالحقيقة كل سرّ الطبيعة الذي كان يخفى على الانسان وما يأتي بعد ذلك ليس الاَّ تبسطاً في الجزئيات سيزداد يوماً عن يوم وبسرعة لم يعهد لها في تاريخ العمران مثيل

واما قولك لماذا العمران لا يزال مضطرباً مع ذلك فعليهِ أجيب ان ادخال العلم الجديد الى العقل اسهل جدًّا من ازالة اثر التربية العلمية الراسخة في الاجيال واحلال التربية العلمية الجديدة محلها حتى تصير سليقة في الطبع فهي يلزم لها وقت اطول جدًّا من وقت احلال العلم الحديث محل العلم القديم في العقل بل يلزم لضرورة اثر التعليم الجديد بداءةً في العقل زمان اطول جدًّا مما يلزم لدخولهِ في الفهم . ولذلك كنت قلَّما ترى بين العلماء الطبيعيين المتجردين اليوم من الاشتراكيين من يقف عند ذلك موقف المتأمل المستفيد حقيقة فائدة اجتماعية كبرى بسبب ما فيهِ من اثر تربية الماضي . اما سمعت ذلك العالم الطبيعي كيف يحقر معرفة العلم للعلاقة بين القوى الطبيعية في الشرة الاسبوعية بقولهِ « هذا كل ما يستطيعهُ العلم يريد معرفة النسبة بين القوى واما حقيقة هذه القوى فلا يوجد الاَّ الجاهل الذي يدعي أنهُ يعرفها » وما قال قولهُ هذا متعامياً عن فوائد هذه العلاقة الكلية والتي اكتشافها اكبر فوز للعلم من اول العالم الى اليوم الاَّ حرصاً على منصبهِ وكأنهُ يقول ضمناً انهُ هو يعرف هذه الحقيقة مع تقدم القول منهُ ان الجاهل هو الذي يدعي معرفتها . على ان العلم لا يدعي انهُ يعرف اكثر من هذه العلاقة ولا يهمهُ ان يعرف اكثر منها فهي وحدها كافية . وتقدمهُ كل هذا التقدم البديع في هذا العصر هو من هذه المعرفة . فاذا اضفت الى ذلك قلة انتشار العلوم الطبيعية اليوم وانحصارها في عدد قليل وغلبة التعاليم النظرية في المدارس وبقاء الجماهير في عقولهم وطبائعهم تحت تأثير التربية القديمة فهمت لماذا لم تنتشر التعاليم الاشتراكية الانتشار الكافي ولم تأتِ بكل الفائدة المنتظرة منها — على انك اذا القيت نظرة ولو صغيرة على تاريخ المقابلة بين العمران في القديم والعمران اليوم وبين المجتمعات المختلفة في العمران الحديث بان لك مبلغ تأثير هذه العلوم بحسب حال كل

مجتمع منها. وهذا هو السبب الذي لاجله تراني في كل مباحثي احث على وجوب نشر العلوم الطبيعية ووضع كتب في التربية والتعليم على مبادئها وإحلالها في المدارس وفي كل وسائل التعليم محل تلك

س . اني وان كنت قد فهمت ان الاشتراكية ليست اقتسام المال بطرق غير مشروعة ولا التعدي على حق مكسوب بالاستحقاق بل هي ردّ حق مسلوب وهو حق العمل المنتصب وتوفير اسباب الراحة والصحة وتوفير العمل للجميع ومكافأة هذا العمل على مقدار الجهد المبذول وان كنت اسلم بان ذلك يرقي الاجتماع ويقلل الجنايات ويدفع المجاعات والحروب المخربة ويخفف وطأة الامراض ويدفع الاوبئة الفتاكة ويبسط العلم ويرقي الصناعة والزراعة وكنت اسلم كذلك بان الاشتراكية التي ترمي الى كل ذلك هي نعمة كبرى من نعم الاجتماع لكن لم افهم العلاقة التي بينها وبين العلوم الطبيعية حتى يكون لهذه العلوم هذه الاهمية التي تقول عنها

ج . اذا كنت قد وعيت كل ما تقدم لم تذهب عليك هذه الاهمية لان العلم الصحيح يجعل احكام القياس العقلي صحيحة والغرائز التي تنغرس في الطبائع ذات اميال صحيحة فاذا عمل الانسان حينئذٍ عن تعقل او عن هوى تكون اعماله اقرب الى الصواب ولاسيما اذا تربت على مبدإ واحد شامل كمبدإ العلوم الطبيعية فان تذبذبها في هذه الاعمال يقل حينئذٍ جدًّا بخلاف ما هي عليه حتى الساعة من تأثرها بالعلوم النظرية القائمة في البدء على مبادئ مختلفة متعددة تعدد القوى في الماضي حتى اليوم

اما العلاقة فواضحة من المشابهة بين الاجتماع والجسم الحي فالاجتماعي الطبيعي اذ ينظر الى الاجتماع لا يسعه الا ان يعتبره مجسمًا حيًّا كسائر الاحياء ولا يختلف عنها الا في الكبر وطول العمر فهو مؤلف مثلها ويلزم ان يكون خاضعًا لنواميس كنواميسها بل هو خاضع لنواميسها لانه مؤلف منها. فالاحياء مؤلفة من اعضاء ومجاميع اعضاء مختلفة كبيرة وصغيرة حتى تنتهي الى ادق الدقائق المسماة بالكريات الحية . وكل عضو بل كل كرية حية في هذا الجسم تشتغل لسلامة الكل والكل يشتغل لسلامة هذا الجزء فاذا وقع اقل تقصير في تبادل هذه الخدمة والمنفعة اختل التوازن ووقع الجسم في السقم الذي قد يؤدي به الى الموت . وبالقياس الى ذلك يجب ان تكون سياسة الاجتماع على هذه السنة مع جميع الاعضاء الذين يتألف منهم مجاميع كالوا كالاوطان والامم والقبائل الخ او افرادًا كالاناس الذين تتألف منهم هذه المجاميع والذين هم له بمثابة الكريات الحية للجسم الحي والأوفق في الاضطراب

فالاشتراكية بقولها انها توفير العمل اولاً ثم توفير المنفعة على قدر العمل قد اخذت هذا المبدأ عن اساس راهن هو نظام الحي نفسهِ والعلم بنظام الاجتماع على هذه الصورة يجعل القيام بالواجب من قبيل نيل الحق فلا يغفل الكبير حق الصغير ولا يتوانى الصغير عن حق الكبير والاَّ لحق الضرر بالاثنين على حدٍّ سوى وساء حال الاجتماع عموماً . بل العلم بذلك من هذا السبيل يسهل القيام بالعمل المفروض منهُ عن مبادىء قويمة مكينة وهذا ما حملني على القول بان الاشتراكية لا تنتشر في نظام الاجتماع الاَّ اذا انتشرت مبادئ العلوم الطبيعية نفسها وهكذا كما قلت واقول تصبح الاشتراكية لا مذهباً من المذاهب او تعليماً من التعاليم مقحماً في نظام الاجتماع كما كانت تبدو في تعاليم النظريين بعيدة المنال بل نتيجة لازمة للعلم الطبيعي نفسهِ ولا يتم ذلك كما ينبغي الاَّ اذا انتشر العلم الطبيعي انتشار العلوم النظرية في الماضي وتدرَّبت الطبائع عليهِ كما تدرَّبت على تلك كما سبق القول

فاذا لم تفهم ما هي الاشتراكية الصحيحة كما اسميها ولم تفهم كذلك اهمية علاقتها بالعلوم الطبيعية بعد كل هذا البيان فالذنب ليس عليَّ بل الذنب حينئذٍ على تشبُّثك من مبادىء علومك النظرية القديمة التي تدرَّبت عليها حتى اليوم وهذه ان لم اكن قد تمكَّنت من اقناعك بفساد اساسها الذي اقيمت عليهِ نفسي ان اكون قد اقلقتك فيها والشك اول طريق الهدى

الشعر العصري وكيف ينبغي أن يكون (١)

سادتي . ما احسن مجلسكم وما احقهُ بثناء يشاكلهُ في حسنهِ . ولكن هيهات . من اين اوتي لساني تلك الفصاحة . ومتى استطاع خاطري هذه الاجادة . غير اني لا ارضى لنفسي معذرة . لا بد من كلمة اقولها . اثني عليكم كما استطيع . لا كما ينبغي . فاقنعوا مني بالقليل . ان على آثارهِ كثيراً مما ستفيض بهِ قرائح اخواني الشعراء اذا تعاقبوا بعدي على هذا الموقف . تلك اغاني العصر الجديد . يحيي بها دولة الادب الجديدة . في هذه البلدة القديمة

تمنيت ان امتَّع بمثل هذه الساعة . ان عندي احاديث اعددتها لها . وتمنى هذا النادي الادبي متكلماً يقف وقفتي . فتوافقت الامنيتان وكان الفضل لكم في تحقيقهما . نتسابقوا معهُ الشكر . ولكم عندي المزيد

(١) خطبة محضرة ولي الدين بك يكن القيت في النادي الملوكي الادبي بالاسكندرية في ٢٨ نوفمبر الماضي